بـِلا وطــن

اعتادت مريم ذات التسعة عشر ربيعاً الخروج من بيتها كل صباح في تمام السابعة والنصف، قاصدةً محل دراستها، حيث أنها في الفرقة الثانية في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة العربية، وحيث أنها تقطن في منطقة شعبية، و لا تملك سيارة خاصة، فإنها تشق الطرقات الضيقة، والحواري والأزقة والمنعطفات حتى تصل إلى موقف السيارات الأجرة الذي يبعد عن مسكنها بحوالي خمس دقائق سيراً على الأقدام، يتكرر المشهد كل يوم، ترى بائعة الخضار على ناصية حارتهم تقوم برص بضاعتها المتواضعة مرددة عبارتها الشهيرة " صبحنا وصبح المُلك لله"، تلقي عليها مريم التحية الصباحية في تجهم: صباح الخير ياام احمد

- صباح النور يادكتورة، يجعل صباحك لبن حليب .

اعتادت بائعة الخضار أن تلقب مريم بهذا اللقب منذ أن كانت طالبة بالثانوية العامة،وحيث كان الجميع يتوسم في مريم النُبوغ توقعوا أن تلتحق بكلية الطب أو الصيدلة، لكن القدر كان له رأي آخر حيث لم يؤهلها مجموعها الذي حصلت عليه في الثانوية العامة سوى لدخول كلية الآداب.

تتمتم مريم أثناء استكمال سيرها "دكتورة!" دكتورة ماذا إذن؟ أهذه بلد تقدر مجهود أحد؟ لو كنا في بلد تقدر مجهود مواطنيها ما ضاع مجهودي في الثانوية العامة ، إيييييه حمداً لله على أية حال .

مريم دائماً ماقتة متذمرة؛ حيث لا يعجبها وطنها ولا جامعتها ولا دراستها ولا شارعها ولا بيتها، متمردة على كل أوضاعها اجتماعية كانت أو مادية، فهي ترى نفسها مظلومة في كل شيء، ودائماً ما تلقي باللوم على ظروفها وترثي لحالها وكأن الكون كله يعمل ضدها !

تكمل سيرها في امتعاض، تسمع صوت المذياع يصدر من المقهى الذي يبعد عن شارعها بشارعين يتغنى بصوت أم كلثوم: "ياصباح الخير ياللي معانا" مختلطاً بصوت زمجرة أبواب الدكاكين الصاج أثناء فتحها، تسرع الخطى متحاشيةً نظرات الجالسين على المقهى ومعاكساتهم التي تنم عن سخرية أكثر منها إعجاب، فمِشيتها التي تشبه مشية عسكري الدرك دائماً ماتثير سخريتهم، فضلاً عن نظارتها بعدستها "قعر الكوباية" التي تتقعر خلفهما عيناها فتبدوان أصغر كثيراً من حجمهما الطبيعي، كما أنها اعتادت أن تقصع شعرها برابطة شعر من الخلف على شكل كعكة صغيرة، بينما زيها دائماً عبارة عن بلوزة بأكمام طويلة مع تنورة طويلة ضيقة تحدث صوتاً عند فتح رجليها تأهباً لأخذ خطوة جديدة بخطواتها الواسعة، مما يثير

انتباه المارة وضحكاتهم، تصل أخيراً إلى موقف سيارات الأجرة، تتجه نحو الصف الذي تسمع فيه منادي السيارات ينادي "جامعة .. جامعة"

تدلف في أول سيارة اجرة تأخذ مكانها بجوار النافذة ، لطالما اختارت هذا المكان تحديداً حيث أنها تظل مثبتة عينيها على لافتات المحلات التي حفظتها من تكرار رؤيتها بشكل يومي، كما أنها وسيلة جيدة للهروب من اختلاطها بباقي الركاب وأحاديثهم التي لا تروق لها، تظل على هذا الحال حتى تصل إلى محطتها أمام باب الجامعة، تنزل من السيارة متجهة نحو باب الجامعة، تقطع مسافة طويلة داخل الحرم الجامعي من دخولها من باب الجامعة وإلي وصولها إلى مبنى كليتها "كلية الآداب"، تصل دائماً في ميعادها المضبوط في تمام التاسعة، فهي تقدس الوقت، تصعد الدرج حتى الدور الثالث حيث قاعة محاضرات الفرقة الثانية.

اعتادت أن تجلس بجوار طالبتين تبدوان من هيئتهما أنهما ليستا مصريتين، وبرغم ذلك فهي لم تحاول معرفة من أي بلد هما، لا تعرف عنهما سوى الاسم الاول لكل منهما (جومانة و حكيمة) لم تحاول يوماً أن تفتح معهما حديثاً وإن هما حاولتا ذلك لا تعطيهما فرصة.

أخرجت دفتر محاضراتها، ثواني ودخل الدكتور يونس محاضر مادة التربية الوطنية، شاب في الأربعين من عمره، يرتدي بزة باللون البيج الفاتح، وقميصاً باللون البني، دون رابطة عنق، ألقى التحية الصباحية على الطلاب، ثم بدأ في إخراج أدواته المخصصة للشرح، كتب عنوان الدرس في أعلى منتصف السبورة الاليكترونية (البروجيكتور) بخطٍ كبير "الوطن"

تمتمت مريم بصوت لم يسمعه سوى زميلتيها المجاورتين لها (جومانة وحكيمة): من أولها وطن ووطنية ومواطنة وشعارات كاذبة لا تمت للواقع بصلة .!

شرع الدكتور يونس في إلقاء محاضرته مستهلاً حديثه بسؤال: ماذا تعني كلمة وطن؟ ثم استطرد قائلاً: من يعرف الاجابة فليتفضل برفع يده .

رفعت مريم يدها وسط عدد من الطلاب المعدودين الذين قاموا برفع أيديهم للإجابة عن السؤال، والذين يبدو أنهم تفاجأوا بالسؤال .

أشار المحاضر لمريم: قائلاً تفضلي، ولكن قبل أن تجيبي عرفينا بنفسك، نهضت مريم من على مقعدها بالمدرج قائلة: اسمي مريم، للأسف مصرية، اندهش دكتور يونس وباقي زملائها وزميلاتها بالمدرج وصارت همهمة في القاعة تشي بعدم الارتياح من تصريح زميلتهم بأنها تأسف لمصريتها، طلب المعلم الهدوء من الطلبة.

ثم عاد وسألها: لماذا تأسفين على كونك مصرية يامريم؟ ألديك سبب مقنع لذلك؟ أجابت مريم: بالطبع، لدىّ عدة أسباب وليس سبب واحد، قال: أطلعينا من فضلك على هذه الأسباب. شرعت مريم في عرض أسبابها قائلةً: نحن نعيش في بلد ظالم يادكتور، البلد الذي لا يعرف كيف يجعل مواطنيه يعيشون حياة رغدة لا يستحق الانتماء، البلد الذي يفرق بين ابن الوزير وابن الخفير لا يستحق الولاء، البلد الذي لايقدر عقلية أبنائه من النبغاء والعلماء ويصبح عامل طرد لكل مفكريه لا يستحق الحب، أعلنها صريحةً أمام الجميع أنا لا أحب مصر ولا أسميها وطني وأتمنى أن يأتي اليوم الذي أستطيع فيه أن أهجرها إلى بلدٍ آخر أكثر رقياً وتحضراً، بلد يضمن لي أبسط حقوقي التي افتقدها في بلدي.

سألها دكتور يونس هل أنهيتِ كلامك؟ قالت: نعم ، أشار لها بالجلوس قائلاً: فلتتفضلي، ثم استرسل قائلاً: جاء دوري لأرد عليكِ.

قبل أن يرد عليها رفعت جومانة يدها مستسمحة المُحاضر أن يعطيها الفرصة لترد هي على زميلتها، ألحت في طلبها حتى أذن لها المُحاضر بالرد .

تحركت جومانة من مكانها متجهة ناحية المنصة حيث كان المُحاضر واقفاً: اسمح لي دكتور، تناولت منه مكبر الصوت: أختي العزيزة مريم، اسمحي لي أن أخبركِ سراً مخفياً عنكِ، حقيقة تجهلينها مع أنها واضحة

أمامك كالشمس، أنا جومانة من سوريا، انتبه الطلاب وتعجبوا أن طالبة سورية هي التي سترد على زميلتها المصرية!

استرسلت جومانة في حديثها قائلةً: لو كنتِ جربتِ الحرمان من وطنك مجبورة لأدركتِ معنى الوطن، لو كنتِ فقدتِ نصف عائلتك وأنتِ تهربين من وطنك لاجئة في بدان آخرى لعرفتِ معنى الوطن، لو كنتِ قاسيتِ ما قاسيته أنا وكل أهل وطني في الحرب والدمار والقتل والتهجير لكنتِ قَبَّلتِ تراب بلدك كل يوم، يكفي أنكِ تعيشين هنا بين أهلك وأصدقائك في أمان، لا تعرفين الخوف ولا الذل ولا القهر ولا الفقد، ظلت جومانة تسهب في حديثها عن معاناتها والدموع تسيل على خديها ما جعل كل من في القاعة يتأثرون ويبكون بمن فيهم مريم.

هنا انضمت حكيمة إلى جومانة وأكدت حديث زميلتها، تناولت منها مكبر الصوت وقالت باكيةً: نعم صديقتي جومانة أنتِ محقة في كل ما قلتِه، لا يعرف معنى الوطن سوى من حُرم منه مثلي ومثلك، أنا اسمي حكيمة لاجئة عراقية، اضطررنا أنا وعائلتي أن نهرب من العراق بلدنا الحبيب خوفاً من بطش الدواعش الذين لايرحمون أحداً صغيراً كان أو كبيراً، تركنا بلادنا مجبرين، تركنا هناك بيوتنا ومدارسنا وأصدقاءنا، تركنا ذكرياتنا، لم نأخذ شيئاً معنا سوى الأوجاع والحرمان.

وما إن انتهت حكيمة وجومانة من سرد معاناتهما القاسية حتى صفق لهما كل الطلاب والمُحاضر تصفيقاً حاراً، وتناول منهما مكبر الصوت قائلاً: لا لا بتئسا يا اختاي أنتما هنا بين أهليكما وأصدقائكما، أنتما في وطنكما الثاني، فمِصر حاضنة لكل أشقائنا العرب، ثم وجه حديثه لمريم قائلاً: أظن يامريم لن تجدي أبلغ من رد زميلتيكِ جومانة وحكيمة على كلامك عن كرهك لوطنك! أنا شخصياً مهما بحثت عن كلمات أرد بها عليكِ لا يمكن أن أعثر على كلمات مؤثرة كالتي افاض بها زميلتاك، أتمنى أن تكوني قد استوعبتِ الدرس جيداً وفهمتِ معنى الوطن. فالوطن يا مريم ليس مجرد بلد، الوطن هو الأرض، والعِرض، والدِفء، والستر، والأمان ، والاحتواء .

طأطأت مريم رأسها خجلاً، ثم رفعت رأسها والدموع تنهمر من عينيها وطلبت من معلمها أن يسمح لها بالصعود إلى المنصة وإلقاء كلمة أخيرة.

سمح لها معلمها: بالطبع، فلتتفضلي.

اتجهت مريم ناحية مكبر الصوت وتناولته من المُحاضر وقالت جملتين مقتضبتين: أعتذر لكم جميعاً وأعتذر لوطني الحبيب عما بدر مني من إساءة، من لا يعرف قيمة وطنه لا يستحقه، ثم استأذنت في الخروج من القاعة

منذ تلك اللحظة تبدلت مريم تماماً، لقد عرفت قيمة الوطن، أدركت أن الوطن ليس مجرد بلد، الوطن هو الأرض، والعِرض، والدِفء، والستر، والأمان، والاحتواء مثلما أخبرها المحاضر بالجامعة .

ظلت كلماته تلك تتردد في مخيلتها طيلة طريق عودتها إلى بيتها، فمن شدة تأثرها لم تقدر أن تكمل باقي يومها الدراسي وآثرت الانفراد بنفسها وإعادة حساباتها في طريقة تفكيرها وتعاطيها مع الأمور التي كانت تنظر إليها نظرة سطحية ليس فيها أي عُمق. قررت أن تتخلى عن دور الضحية الذي تعيشه منذ سنين، وتعمل جاهدةً على تحقيق ذاتها دون ان تلوم الظروف و أحوال البلد.

لم تنم هذه الليلة، ظلت طوال الليل تفكر في كلام زميلتيها، شعرت أن غمامة انقشعت مؤخراً من على عينيها وكأن جومانة وحكيمة هما المصباح الذي أرسله الله لها كي ينير لها الطريق، حين لاح الفجر استيقظت بكل نشاط على غير عادتها، ارتدت ملابسها، استعاضت عن تنورتها الطويلة الضيقة ببنطال جينز، تخلت عن رابطة شعرها الناعم فأطلقت له العنان، حين نزلت الشارع تنفست بعمق وكأنها صار لها زمن لم تتنفس ، سارت في الشارع بخطىً واثقة وابتسامة ساحرة، ألقت التحية على بائعة الخضار: صباح الخير يا أم أحمد، ردت عليها البائعة في ريب: صباح النور. فلم

تعرفها لأنها قد خلعت نظارتها واستعاضت عنها بعدسات لاصقة، ابتسمت مريم: ألم تكملي جملتك الجميلة؟ أين كلمة دكتورة؟ لم تصدق عينيها وقامت بدعكهما غير مصدقةً: أنتِ دكتورة مريم؟ ضحكت مريم: نعم يا أم أحمد ، أنا هي .

قالت البائعة متعجبةً : سبحان مغير الاحوال

تركتها مريم وأكملت سيرها وهي تسمع البائعة تكمل جملتها المعتادة: يجعل صباحك لبن حليب يادكتورة .

ردت مريم على أم أحمد في سرها: يوماً ما سأصبح دكتورة عن جد يا أم أحمد، سأذاكر وجتهد لأصبح دكتورة جامعية، وحينها تقوليها لي عن استحقاق وليس مجاملةً .

مرت على المقهى الذي يبعد عن بيتها بشارعين، سمعت صوت أم كلثوم الصادر من راديو المقهى يقول: "ياصباح الخير ياللي معانا" رددت في نفسها" ياللي معانا" .

سارت في الطرقات الضيقة والحواري والأز قة والمنعطفات حتى وصلت إلى موقف سيارات الأجرة، استقلت السيارة التي ينادي بها التباع: (جامعة .. جامعة)، ركبت في مكانها المفضل بجوار النافذة ليس تجنباً

مخالطة الناس مثل المرات السابقة ولكن لتتأمل في مستقبلها الواعد الذي تراه من خلال نافذة السيارة .

جاءت محطتها ونزلت من السيارة، اتجهت ناحية باب الجامعة، ولجت الحرم الجامعي، سارت في طريقها الطويل حتى وصلت إلى باب كليتها "كلية الاداب" صعدت على درج السلم حتى وصلت للدور الثالث، حيث قاعة محاضرات الفرقة الثانية، كانت الساعة التاسعة تماماً، لازالت تقدس الوقت، أخرجت دفتر محاضراتها وكتبت في أعلى منتصف الصفحة بخطٍ عريض "حـــب الوطـــن".